



الهؤامش

1. عامل باكو، 26 سبتمبر 1989.
2. رسول غنجه، 20 يناير 1990.
3. عامل باكو، 17 يناير 1990.
4. نتائج التحقيق المحايد في أحداث يناير لعام 1990 في باكو التي توصل إليها الخبراء العسكريون للمنظمة الاجتماعية "شيت" - جريدة "أنباء موسكو"، 17 أغسطس 1990.
5. عامل باكو، 17 يناير 1990.
6. أرافقى ج. النزاع الأرمني الأذربيجاني: المنظور العسكري. باكو، 1995، ص 10
7. جريدة "أنباء موسكو"، 1990، 17 أغسطس.
8. جريدة «أنباء موسكو»، 1990، 12 أغسطس.
9. 19 يناير 1990، أسباب الأحداث المأساوية لدخول القوات إلى باكو، من تقرير الصادر عن لجنة المجلس الأعلى، مجلة الشعب، 18 يناير 1992.

أيام يناير لعام 1990.

ومن الحكم هنا القيام برحلة تاريخية قصيرة وإجراء مقارنة مع الأحداث التي جرت في أوائل القرن العشرين. ففي عام 1918 وإعلان جمهورية أذربيجان الديموقراطية المستقلة في يوم 28 مايو، جرت أحداث مارس المأساوية، وقد اندلعت أيضاً من خلال الهجمات الدموية الكبيرة ضد السكان الآمنين الأذربيجانيين في كل من مدن: باكو، جوبا، لانكياران، جوتشيا، وكذلك في قاراباغ، وزانجيزور، والتي نشأت بها التشكيلات المسلحة الخاضعة لمجلس باكو، والمشكلة من جنود الجيش الأحمر والمقاتلين الأرمن، وكذلك كتائب الدشناك. وفي تلك الفترة قتل بوحشية الآلاف من النساء والأطفال والشيوخ. وكما نرى فالتاريخ يعيد نفسه، ليس فقط في تتبع الأحداث، ولكن أيضاً فيما يتصل بالمشاركين فيها. وحقاً إن الحرية لا تُمنح، بل تُؤخذ. والثمن هو بذل الدماء الغزيرة...

اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية إلى دولة متحضرة ديمقراطية، ومثلت حافزاً لحشد مشاعر الفكر القومي والوعي القومي للشعب، وإصراره على النضال في سبيل السيادة. وقد تجسد التأكيد على هذا الأمر عبر جنائزات ضحايا الأحداث المأساوية التي جرت في 22 يناير لعام 1990. وبعد مضي يوم واحد على تلك الليلة المرعبة، خرج إلى الشوارع جميع سكان المدينة فعلياً، وذلك لمراقبة المواطنين الشهداء الذين سقطوا، ومضى الحشد يسير تحت تهديد مدافع الجنود السوفيت بالمعنى الحرفي لكلمة. ولم يحدث من قبل ولا بعد هذا الأمر، أن شهدت باكو مثل هذا التظاهر الهائلة. وبالمناسبة فلم يكن الناس يتحركون بداعِيَّ الألم والحزن فقط، بقدر ما دفعهم السعي لعرض صلابتهم وإرادتهم في مواسلة النضال في سبيل فكرة الحرية الوطنية.

ومن حيث الجوهر، فإن تلك التظاهرة والإضراب الوطني العام الذي تلاه واستمر لمدة 40 يوماً، قد أصبح نوعاً فريداً من الاستفتاء الشعبي لدعم استقلال دولة أذربيجان، وفي نفس الوقت مثل تأكيداً على الهلاك المحتموم للامبراطورية السوفيتية. وتعليقًا على أحداث يناير في باكو قام المراقب السياسي أ. تيخومiroف في برنامج يوم الأحد “فريميا” بالتصريح بكلمات صادقة نبوية قائلًا: “لا يمكن الحفاظ على هذه الامبراطورية بعد الآن، لا بالعصا ولا بالجزرة”.

وختاماً نشير إلى أنه على العكس من جميع المحاولات لإظهار يوم 20 يناير لعام 1990 باعتباره “كريبلاء أيامنا المعاصرة”， تقريباً، فإن هذا التاريخ يمثل أكثر الأيام مجدًا في التاريخ الحديث لأذربيجان بأكمله. فتحديداً في تلك الليلة المظلمة وقف الأذريون العُزل في مواجهة المسلحين حتى أُسنانهم، وهم يواجهون واحداً من أعنى جيوش العالم للدفاع عن حقهم في الاستقلال. وقد أصبحت الوثيقة الدستورية التي أقرها برلمان أذربيجان في 18 أكتوبر لعام 1991 حول الاستقلال تمثيل مجرد تسجيل قانوني لما تم تحقيقه فعلياً خلال

بالاستخدام المعتمد للنيران المميتة بصورة تتم عن النية المسبقة لذلك ، مما أدى إلى سقوط عدد كبير من الضحايا بين السكان الآمنين. وطبقاً للمعطيات الرسمية للجنة البرلمانية الخاصة بأحداث 19-20 يناير لعام 1990، ففي سياق عمليات الجيش التي جرت في باكو استشهد 131 وجرح 744 مواطن سلمي (9).

ومما لا شك فيه، فيفضل هذا الإجراء العقابي، استطاع مركز الاتحاد تحقيق بعض النجاحات التكتيكية، ونجح بصورة مؤقتة في ترسير الأوضاع واستقرارها في أذربيجان عبر فرض حالة الطوارئ، وأن يضع على الكرسي السكريتير الأول للجنة المركزية المحلية باعتباره دميته المقبلة. ولكن على الصعيد الاستراتيجي تعرضت قيادة الاتحاد إلى الفشل التام، حيث أن أحداث 20 يناير لعام 1990 قد أصبحت البداية لنهاية النظام السوفياتي الشيوعي في أذربيجان. وتشير كافة الشهود إلى أن هذه الأحداث قد كشفت استحالة إعادة تشكيل



للاتحاد السوفيتى حول ”إعلان حالة الطوارئ فى إقليم قاراباغ الجبلى ذو الحكم الذاتى وبعض المناطق الأخرى“، وذلك بدءاً من 15 يناير لعام 1990، وتقترب المادة السابعة على وجه الخصوص تطبيق حظر التجوال فى كل من باكو وغنجه (5). وفي أذربيجان جرى تقييم هذا المرسوم باعتباره تجسيداً إضافياً للموقف الأرمني من قبل مركز الاتحاد، خاصةً أن تطبيق حالة الطوارئ على أراضي أرمينيا التي تمثل مصدراً مباشراً للأوضاع المضطربة في المنطقة، لم يجر التطرق إليه بأى كلمة في الوثيقة.

وفي الفترة من 16-19 يناير لعام 1990 تم إنشاء مجموعة قتالية ضخمة عند مشارف باكو بعدد إجمالي تجاوز أكثر من 50 ألفاً من العسكريين التابعين لتشكيلات أقسام القطاعات العسكرية الموجودة فيما وراء القوقاز، وموسكو، ولينجراد وغيرها (6). وكان من بينهم عدد كبير من جنود الاحتياطى، بما فيهم القوميون الأرمن الذين ”تميزوا“ بصورة خاصة أثناء دخول القوات إلى باكو (7).

وقد سقط الضحايا الأكثر عدداً من جانب السكان المدنيين في تلك المناطق تحديداً التي استُخدم فيها جنود الاحتياطى. وقبل دخول القوات إلى باكو تعرض جنود الاحتياطى إلى إعداد نفسي مكثف وصاروا مستعدين لإظهار الصلابة والإقدام. بالإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك عدد من المجرمين الجانحين من بين جنود الاحتياطى (8).

كان تركز مثل هذه المجموعة القتالية القوية من القوات في ضواحي باكو بعد توقيف الهجمات الأرمنية في المدينة، شاهداً على خطورة نوايا مركز الاتحاد الذي قرر بصورة نهائية أن يصبح نموذج أذربيجان ”درساً“ لبقية الجمهوريات الاتحادية. وبغض النظر عن كل اعترافات السكان، ففي مساء ليلة التاسع عشر عشية يوم العشرين من يناير لعام 1990، تم إدخال أنواع من الجيش السوفيتى إلى المدينة دون توجيه أي إنذار مبدئي للسكان المقيمين بها. وصوبت إدخال القوات



الهجمات ظلت الأجهزة القانونية لحفظ القانون على الحياد، ومعها 12 ألف من قوات الأمن الداخلية التابعة لوزارة داخلية الاتحاد السوفيتى الموجودة في المدينة، والتزمت عدم القيام بأى شيء بصورة إجرامية (4). وهناك حقائق لا تقبل التنفيذ تشهد على أن تلك القوات قد صدرت لها الأوامر بعدم التدخل، وكان تطور الأحداث على هذا النحو يلائم تماماً قيادة الاتحاد. وفقط بفضل مجهودات نشطاء الجبهة الشعبية لأذربيجان تم التوصل إلى إيقاف الهجمات في العاصمة في 16 يناير. وما زاد من تفاقم تلك الأوضاع المحتدمة بالفعل في أذربيجان، المرسوم الصادر عن مجلس السوفيت الأعلى





حول الفوز في الانتخابات البرلمانية المُزمع إقامتها في إبريل عام 1990، تلك الجبهة التي دافعت عن الخروج من تشكيل الاتحاد السوفيتى. وقد مثلت كل هذه الأوضاع سبباً ومبرراً للقيام بالعملية العسكرية في باكو.

ومن المثير للاهتمام أنه في ظل تلك الأوضاع المأساوية انتفضت قيادة الجمهورية التي ظلت محيدة حتى ذلك الوقت، وتملكتها "الشجاعة" فجأة على نحو غير مفهوم، وقررت الدفاع بحماس عن إنشاء فصائل من الميليشيات المسلحة. وفي الأيام الأولى من يناير لعام 1990، وأمام عمال مصنع باكو للمبردات قام قائد الجمهورية حينذاك أ. وزيروف بدعوة الشباب للتسجيل في كشوف الميليشيات، واعداً إياهم بإمداده بالسلاح (3).

وقد كان جلياً للعيان تماماً أنه من جانب مركز الاتحاد يجرى الإعداد للقيام بعملية استفزاز كبيرة. وبالفعل، بدءاً من 13 يناير لعام 1990 بعد، بدأ في باكو انتشار الشائعات التي سادت المدينة منذ نهاية شهر ديسمبر حول الهجمات الأرمينية، والتي روج لها جهاز الخدمة الخاصة للاتحاد السوفيتى. وعلى وجه الخصوص، وفي 30 ديسمبر لعام 1989 قامت صحيفة "آزادلیچ" بتحذير السلطات حول فرصة حدوث أعمال غير شرعية مماثلة من قبل السكان الأرمن بالمدينة. غير أن الهيئات الحكومية، التي عرفت من قبل عن تلك الهجمات التي يتم الإعداد لها، لم تتخذ أي إجراء لمنعها. وحتى بعد بدء

قاراباغ الجبلي. وقد سهل هذا الأمر القيام بأية استفزازات لتبرير استخدام القوة. والأكثر من ذلك أنه عند نهاية ديسمبر لعام 1989 تفاقمت الأوضاع المضطربة حتى بلغت ذروتها في منطقة النزاع في قاراباغ. وقد مثل حافزاً لتصعيد التوترات في المنطقة قرار المجلس الأعلى لأرمينيا السوفيتية الصادر في 1 ديسمبر لعام 1989 حول انفصال أرمينيا السوفيتية وإقليم قاراباغ الجبلي (2). وانصب نشاط المقاتلين الأرمن اللاحق في حرب حقيقة ضد أذربيجان. ولأول مرة منذ بداية النزاع في قاراباغ أصبحت المناطق الأذربيجانية الواقعة خارج حدود إقليم قاراباغ ذو الحكم الذاتي، هدفاً لهجوم الانفصاليين الأرمن.

إن الموقف المتاخذ الفعلى لقيادة الاتحاد، وعدم اتخاذ التدابير الكافية لمنع أعمال الجانب الأرمني المخالفة للدستور، قد أدى إلى التفاقم الخطير للأوضاع السياسية الداخلية في أذربيجان. وبدورها قامت قيادة الحزب الشيوعي في أذربيجان وهي السلطة الحاكمة حينذاك، والتي لم تكن مؤهلة لاتخاذ القرارات السياسية المستقلة حتى في ظل تلك الأوضاع المتازمة، بمواصلة الخضوع بصورة عمياء لقرارات المركز في الاتحاد. وفي بداية عام 1990 فقدت القيادة الأذربيجانية مصداقيتها بصورة نهائية، كما فقدت كل القدرة على إدارة الأوضاع في الجمهورية. وفي ظل هذه الظروف لم تثر قوى المعارضة التي تترأسها الجبهة الشعبية لأذربيجان أى شكوك





الغرب. ومن جانب آخر، كانت أذربيجان هي الجمهورية الوحيدة من بينهم التي يمثل فيها المسلمين الأغلبية الساحقة من السكان. وقد منح هذا الأمر قيادة الاتحاد استغلال فرصة الإتجار بشبح “الأصولية الإسلامية” سيئة الصيت، وذلك لتبرير العملية العسكرية ضد السكان المدنيين في عيون المجتمع الدولي. وفي واقع الأمر، فقد أكد لاحقاً ميخائيل جورباتشوف أنه في سبيل منع وصول “الأصوليين الإسلاميين” تحديداً إلى السلطة في أذربيجان، فقد تم إدخال القوات العسكرية إلى باكو.

وقد وضعت القيادة السوفيتية في اعتبارها حقيقة أن تصاعد الحركة القومية في أذربيجان يسير على خلفية النزاع الدائر في قاراباغ، والذي ينطلق من الادعاءات الإقليمية لأرمينيا في الأراضي الأذربيجانية الأصلية الواقعة في إقليم



أذربيجان أولى الجمهوريات الاتحادية في الاتحاد السوفيتي التي أقرت القانون الدستوري حول “سيادة أذربيجان السوفيتية”， والتي يضع أولوية التشريع الجمهوري قبل الاتحادي (1) وقد أصبح هذا القرار الصادر عن البرلمان الأذربيجاني بمثابة خطوة هامة على طريق الوصول إلى السيادة الكاملة.

ويوماً بعد الآخر صار جلياً للعيان أن القيادة السوفيتية لن يمكنها إيقاف عملية تصاعد الاتجاهات الساعية للإنفصال عن المركز في البلاد بالوسائل السياسية المتحضره. وفي تلك الظروف، بدا أن قيادة الاتحاد قررت اللجوء إلى آخر الوسائل المتوفرة لديها وهي- استخدام القوة لتجنب الانهيار الوشيك للاتحاد السوفيتي. وكانت العملية العسكرية المحلية، طبقاً لأسباب ذلك المخطط، ينبغي عليها أن تصبح “ عملاً من أعمال الرعد ” الفريدة من نوعها بالنسبة إلى كل الجمهوريات الاتحادية الساعية إلى الخروج من تشكيل الاتحاد السوفيتي. ولم يكن من قبيل الصدفة اختيار أذربيجان باعتبارها نقطة الانطلاق للقيام بمثل تلك العملية، حيث أنها تمثل “الحلقة الأضعف ” في سلسلة الجمهوريات الاتحادية الواقعة عند الخطوط الأمامية للنضال من أجل السيادة. والحديث هنا يدور حول أنه خلافاً لجمهوريات البلطيق والجمهوريات المجاورة في جنوب القوقاز، لم يتمتع الأذريون برعاية مؤثرين في

أيدن بالايف
أستاذ العلوم التاريخية

أسباب ونتائج أحداث 20 يناير لعام 1990

مقبرة الشهداء



الحركات القومية التي ازداد نشاطها بصورة ملحوظة في جمهوريات الاتحاد. وقد اكتسبت تلك الحركات طابعاً جماهيرياً بصورة خاصة في جمهوريات البلطيق وما وراء القوقاز وكذلك مولدوفا. بيد أن الجوهر الرئيسي للحركات القومية لتلك الجمهوريات؛ بما فيها أذربيجان؛ تجسد في النضال من أجل السيادة. وفي 23 سبتمبر لعام 1989 كانت

تعد أحداث 20 يناير لعام 1990 إحدى اللحظات الفارقة في التاريخ الحديث لأذربيجان. وقد اندلعت هذه الأحداث نتيجة للتغيرات الجيوپول سيكية المعقدة التي جرت في ذلك الوقت على أراضي الاتحاد السوفيتي. ففي نهاية ثمانينات القرن العشرين بلغت عمليات التفكك ذروتها في الاتحاد السوفيتي، تلك العمليات التي أدى إليها بقدر كبير تناهى